فالدعوة الإسلامية أثمرت أكلها بظهورها في الأمة العربية ، إذ ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضرية ، وأخلاقهم الرفيعة ، وشجاعتهم الحليمة الوفية ، وذكاؤهم الحاد ، وفهمهم الدقيق ، وحافظتهم القوية إذ جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا ، فنشطتها وسمت بها ، وأزالت منها السلبيات الموروثة ، فوجد العرب أنفسهم بعد الإسلام تلقائيا يبذلون حماستهم وقوتهم للدعوة الإسلامية ، ويعطون شجاعتهم وإمكاناتهم لأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي خدمة دعوته ، فتحركوا إلى كل مكان من أجل نشرها ، تاركين كل مايهمهم ، وأصبح تعصبهم اندفاعا لتنفيذ أوامر الدعوة الإسلامية وتعاليمها .

وهذه الصفات التي اتصف بها العرب دون كثير من الناس ساعدت بغير شك ، على أن ينجحوا في نشر الدين ، وأن يذهبوا به إلى حيث شاء الله ، ولكن بعد أن هذب الإسلام من أخلاقهم وأصلح من عيوبهم ، وحال بينهم وبين كثير من الشرور التي كانوا عليها ...في جاهليتهم[1] .

وهكذا وضح السر في اختيار الأمة العربية ، لتظهر الدعوة الإسلامية فيها أولا . والله – سبحانه وتعالى – أعلم حيث يجعل رسالته .

عناية الله في اختيار المكان لظهور الدعوة

من دلائل الحكمة الإلهية العليا : أنه – سبحانه – لما اختار مكة لتكون أما لبلاد العالم ، واختار مسجدها ليكون أول بيت وضع للناس ، فقد هيأ بيئتها ، ومناخها وطبيعتها ، لتكون أصلح مكان في الأرض ، لنماء وثبات عقيدة الإسلام العالمية[2] .

ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية ، ط : الثانية ، سنة : ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م ، طبع ونشر : دار الرائد العربي ، بيروت .

(١) د . عبد الحليم محمود ، الدعوة الإسلامية ، جـ : ٢ ، ص : ٥٠٧ .

(٢) عبد القادر أحمد عطا ، لماذا بعث الرسول في مكة ؟ ص : ١٤ ، ط : دار العلوم للطباعة بالقاهرة ، سنة : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

وقد اشتهرت مكة منذ القديم بوضعها الخاص المتميز عن سائر المدن ، وقد حفظ العرب لها هذه المنزلة ، فأحاطوها بما يليق بها عن حب وعناية وتقدير ، فهي عندهم (أم القرى) وأصل المدائن ، وبها الكعبة المشرفة ، التي تحمل في ثناياها ذكرى إبراهيم – عليه السلام – وترمز إلى الخير المبارك من الله –تعالى –[1] .

ولقد توارث العرب منذ القديم حقيقة تتضمن أن العرب بسبب الكعبة في أمن وشبع ، لدرجة أنه لما ضاق الأمر ببني إسرائيل ، وجرهم وهم في مكة ، تفسحوا في البلاد ، وأخذوا معهم بعضا من حجارة الحرم ، يعظمونه ، ويلتمسون فيه الخير ، تعظيما للحرم ، وصبابة بمكة[2] .

وتذكر كتب السيرة : أن العرب كانوا يعتقدون أنه ما من ظلم يقع في مكة ، إلا وتنزل العقوبة بالظالم أيا كان[3] ، وما أراد مكة أحد بسوء إلا أهلكه الله[4] .

وكثيرا ما حذر العرب حكماؤهم ، لهذا يقول أحدهم : « إياكم والإلحاد فيه(الحرم) فإنه بوار ، وايم الله لقد علمتم أنه ما سكنه أحد قط ، فظلم فيه وألحد إلا قطع الله – عز وجل – دابرهم ، واستأصل شأفتهم »[5] .

وكان العرب جميعا في الجزيرة العربية ، يفهمون لمكة ، وللكعبة هذه المكانة ، فيحيطونها بالجلال والتقدير ، ويذكرون دائما أن أهل مكة أهل الله ، ولم يندهشوا كثيرا يوم هلك (أبرهة) وجيشه في مكة بل قالوا : أهل الله دافع الله عنهم ، وكفاهم مؤنة عدوهم[6] .

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٧٦ .

(٢) الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ : ١ ، ص : ٤٦ ، طـ : الثانية ، سنة : ١٣٥٢هـ الناشر : المطبعة الماجدية .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٧٦ .

(٤) فؤاد علي رضا ، أم القرى ، مكة المكرمة ، ص : ١١٧ .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ : ١ ، ص : ٤٨ .

(٦) المصدر السابق .

كان هذا التقدير لمكة أحد أسباب اختيارها لظهور الدعوة كما أن الموقع الجغرافي للجزيرة العربية على العموم ، ولمكة على الخصوص ساعد على نشر الدعوة وإبلاغها ... وما يجدر أن نتنبه له أن هناك بعض الخصائص التي يحسن عرضها ، لنلتمس من معرفتها : الحكمة التي كانت من وراء اختيار المكان لظهور الدعوة . ويمكن عرض الخصائص على النحو الآتي :

أولا : أن آخر ما وصل إليه العلم في الدراسات التى قامت بها أقسام المساحة التصويرية بمراكز البحوث ، والتي استخدمت فيها الأجهزة الألكترونية ، والآلات الإحصائية ، والحسابات الرياضية ، والمنحنيات الاعتبارية لخطوط الطول والعرض ، والتي استهدفت تعيين مواقيت الصلاة في أي زمان وأي مكان على سطح الأرض لجميع أيام السنة ، هو أن (أم القرى) هي وسط اليابسة في الكرة الأرضية تماما ، وأن الكعبة الشريفة لذلك هي المركز تحديدا ، ولأن الأرض وهي تتحرك حول نفسها ، وحول الشمس لاتنقلب على نفسها فإن هذا المركز لايتغير ، وتستمر الكعبة المشرفة هي الوسط دائما[1] .

وعن ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[3] وأم القرى : أصل القرى وهي مكة ، وسميت بهذا الاسم إجلالا لها ، لأن فيها البيت ، ومقام إبراهيم . والعرب تسمي أصل كل شي : أمه ، ومن حولها من أهل البدو والحضر[4] ومن سائر طوائف بني آدم من عرب

(١) د . عبد الرازق ، أم القرى مركز الوسط الأمين . مقال بمجلة : العرب المجلد : ٥١ ، العددان : رجب وشعبان ، سنة : ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م . ص : ٤١ ، الباكستان .

(٢) سورة الأنعام ، آية رقم ٩٢ .

(٣) سورة الشورى ، آية رقم ٧ .

(٤) الفخر الرازي ، التفسير الكبير ، المجلد : ١٤ ، ص : ١٤٨ .

وعجم[1] . وسائر البلاد شرقا وغربا ، وسميت مكة (أم القرى) ، لأنها أشرف من سائر البلاد[2] . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ** »[3] .

يقول السهيلي – رحمه الله تعالى – : وفي التفسير أن الله – سبحانه وتعالى – لما قال للسموات والأرض :﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[4] لم يجبه بهذا إلا أرض الحرم[5] .

ويقال – استنادا إلى روايات – : إن موضع البيت أول بقعة وضعت من الأرض . فقد روى البيهقي في الشعب عن ابن عباس – رضى الله تعالى عنهما – ، قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –« **أَوَّلُ بُقْعَةٍ وُضِعَتْ فِي الأَرْضِ مَوْضِعُ الْبَيْتِ ، ثُمَّ مُدَّتْ مِنْهَا الأَرْضُ ، وَإِنَّ أَوَّلَ جَبَلٍ وَضَعَهُ اللَّهُ – تَعَالَى – عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ : أَبُوقُبَيْس**[6] **، ثُمَّ مُدَّتْ مِنْهُ الْجِبَالُ** »[7] .

وليس في الوجود كله مكان حظي بالشرف والطهر والمكانة في ضمير الإنسانية

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٣ ، ص : ٢٩٤ .

(٢) السابق ، جـ : ٧ ، ص : ١٧٩ .

(٣) رواه أحمد في مسنده ، جـ : ٤ ، ص : ٣٠٥ .

ورواه الترمذي ، في صحيحه ، كتاب المناقب ، باب فضل مكة ، جـ : ٥ ، ص : ٧٢٢ – ٧٢٣ وقال : حديث حسن غريب صحيح .

(٤) سورة فصلت ، آية رقم ١١ .

(٥) السهيلي ، الروض الأنف ، جـ : ١ ، ص : ١٢٨ .

وانظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٧ ، ص : ١٥٦ .

وقيل : إن المتكلم من الأرض بذلك هو : مكان الكعبة ، ومن السماء : ما يسامته منها .. والله أعلم .

(٦) أبو قيس ، هو : الجبل الشرقي المشرف على الصفا .

الأزرقي : أخبار مكة ، جـ : ٢ ، ص : ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(٧) رواه البيهقي ، في شعب الإيمان ، عن ابن عباس ، ولم ينسبه للسيوطي في الدر المنثور ، جـ : ٢ ، ص : ٢٦٦ ، إلا إليه .

عبر أجيالها وعصورها المتعاقبة كما حظي المسجد الحرام ومن ثم جعل التاريخ به ، واحتفى حفاوة لم تعهد لغيره في دنيا الناس .

قال تعالى :﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۚ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾[1] .

وحسبنا هذه الآية وثيقة لتاريخ البيت في تلك البقعة ، التي سماها الله : المسجد الحرام ، وسماها : البيت العتيق . فأيُّ مسجد ذاك ؟ وأي بيت هو ؟ هو الكعبة التي جمع الله لها وصف المسجدية والحرمة ، والبيتية في قوله تعالى :﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾[4] .

وإن في وصفه بالعتاقة لإيذانا بأصالة في الشرف ، وتأكيدا بأنه أول بيت وضع في الأرض للعبادة .

فالبيت الحرام : هو النقطة الوحيدة التي تميزت دون سائر بقاع الدنيا ، وتمركزت فيها وحدها ركائز الحق ، وتغلغل في أعماقها جوهر التوحيد ، وكأنها تفردت لتمثل بؤرة للضوء ، الصالحة لإشعاع الهداية في الضمير الإنساني .[5] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٩٦ – ٩٧ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٩ – ١٥٠ .

(٣) سورة المائدة ، آية رقم ٩٧ .

(٤) سورة الحج ، آية رقم ٢٩ .

(٥) د . أحمد عبد الرحيم السايح ، مكانة الحرمين في الإسلام ، بحث ألقى بمؤتمر قدسية الحرمين ، الذي عقد بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية بالقاهرة ، من : ٢٣ – ٢٥ ربيع الأول ، سنة : ١٤٠٨هـ الموافق : ١٥ – ١٧ نوفمبر سنة : ١٩٨٧م وقد نشرته مجلة الجندي المسلم في العدد الرابع والخمسين ، ص : ٢٤ – ٢٩ ، الصادرة في شهر ذي الحجة ، سنة : ١٤٠٩هـ – الموافق : يوليو ١٩٨٩م من السنة السادسة عشر .

ثانيا : فإن البحث الموضوعي يبرز لهذه البيئة ، مقومات لم تكن متوفرة في غيرها من بيئات العالم القديم ، وإن كانت لها – كأي بيئة أخرى – مشكلاتها التي ينبغي عليها أن تقابلها .

فلقد كانت الجزيرة العربية متوسطة بين قارات العالم القديم كانت مفتوحة على أفريقيا من الجنوب الغربي ، والشمال الغربي ، ولها بها صلات برية وبحرية عبر سيناء والبحر الأحمر ، ومضيق باب المندب ، وخليج عدن ، وبحر العرب ، وظلت هذه الصلات قائمة عبر التاريخ ، وكانت على صلة بأرض الروم في ديار الشام وقتئذ ، وما وراءها في الغرب والشمال الغربي ، وكانت على صلة بأرض فارس وما وراءها برا وبحرا إلى قلب آسيا ، وأمطارها الموسمية في الجنوب والشرق[1] .

ولهذا تعد الجزيرة العربية بموقعها الجغرافي سرة العالم لأنها تقع في وسطه ، وتتصل بكل أجزائه وأقاليمه . ففي شرقها : توجد الدولة الفارسية ، وفي شمالها : توجد الدولة الرومانية ، وفي غربها : توجد مصر والحبشة ، وفي جنوبها : توجد الهند ، وغيرها ، وقد ساعد على التغلب على عوائقها الطبيعية من مرتفعات وبحار : أن العربي كان على خبر كامل بشعابها ، وطرق مواصلاتها[2] .

وقد انعكس هذا على علاقات السلالات البشرية فيها ، فكانت من أنسب الأماكن وقتئذ ، إن لم تكن أنسبها جميعا للقاء السلمي ، والتعايش بين البشر ، كانت – أيضا – وسطا من حيث المكان ، ولم تكن الجزيرة العربية منطقة نائية ، كالشرق الأقصى ، أو جنوب أفريقيا ، أو غرب أوربا[3] .

---

(١) د . عبد العزيز كامل ، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية ، جـ : ١ ، ص : ٦٣٢ ، من البحوث والدراسات التي قدمت لمؤتمر السيرة والسنة الثالث الذي عقد بقطر .

عطية صقر ، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، ص : ٩٨ – ٩٩ ، ط : الأولى مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع ، سنة : ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٢ .

(٣) د . عبد العزيز كامل ، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية ، جـ : ١ ، ص : ٦٣٢ . =

ثالثا : تقع مكة والحجاز بوجه عام في نطاق منطقة الحرارة القصوى ويرجع الجغرافيون ذلك إلى : أن قسما كبيرا من الجزيرة العربية يقع في منطقة الزهو المدارية ، ذات الضغط العالي ، والمطر القليل ، والقسم الآخر يقع في حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة ، التي تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب[1] .

ولقد أدى هذا الوضع : إلى حالة جدب شديدة ، نشأت من قلة المطر ، وندرة سقوطه ، لدرجة أنه لايسقط المطر في بعض أماكن الجزيرة إلا كل ثلاث سنوات ، أو أربع ، وبجانب قلة المطر لاتوجد أنهار في الجزيرة تمد الأرض بالري ، وتعطي للناس معاشهم وأسباب الحياة ، هذا الجدب الصعب جعل الناس يتجهون إلى السماء ، ضاجين بالاستغاثة ضارعين بالدعاء[2] .

وقد ذكر الباحثون : أن العرب تأتيهم الأمطار في أوقات وتنقطع عنهم في غيرها ، فكانوا لذلك شديدي التعلق بها ، وتراهم كثيرا مايقلبون وجوههم في السماء ، وذلك من أعظم المذكرات التي تذكرهم بالله وحاجاتهم إليه[3] .

رابعا : فإن حالة الجدب – المذكورة – جعلت الغالبية في العرب بعيدة عن الترف والنعيم ، منغمسة في الفقر والحاجة ، وهذا الوضع بدوره جعل الطبقة الثرية قليلة العدد ، مشهورة بالاستعلاء على الناس والاستغلال لبقية الفقراء والمحتاجين ، وكان من مفاسدها : أن نشرت الربا الفاحش بمكة ، وجعلت الفائدة أضعاف المال الأصلي . وقد صور القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى – وهو ينهى المؤمنين

= د . محمد رشاد خليل ، ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة العربية قبل البعثة المحمدية ، ص : ٦٧١ .

(١) د . يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ... ص : ٦٢ .

(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٧٧ .

(٣) علوي بن طاهر الحداد ، القول الفصل فيما لبني هاشم وقريش والعرب من الفضل ، جـ : ٢ ، ص : ١٤٦ ، طـ : الأولى ، الجزائر ، سنة : ١٣٤٤هـ .

عنه - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] .

يقول المفسرون : كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله ، زاد في الأجل ، حتى يستغرق بالقدر الطفيف مال المدين كله[2] وأيضا : فلقد أطبق أغنياء مكة على جميع الشئون الاقتصادية بها ، فاشتروا الرقيق ، واستعبدوا الفقراء في توجيه قوافل التجارة الضخمة ، وهذا وضع يجعل الفقراء يستجيبون تلقائيا لدعوة عادلة ، قائمة على المساواة ، وتحريم الظلم وإحساس الفرد أيا كان ، ويندفعون إلى مساعدة هذه الدعوة التي تمنوها لخلاصهم ، واستشعروها من قبل ، في أنفسهم وخيالاتهم .

ومن هنا كان الفقراء ينصتون للدعوة ، ويتدبرونها ..أما المترفون الأثرياء ، فهم أعداء كل إصلاح ، وهم معارضو الرسالات دائما ، حفاظا على وضعيتهم واستغلالهم[3] ، لكن سرعان ما انهارت الطبقة المترفة أمام الدعوة ، فدخل الناس في دين الله أفواجا بعد الفتح .

يقول ابن خلدون : « إن الترف يبدو في بدايته قوة ، لكنه في النهاية ضعف يمضي ولا أثر له »[4] .

والمعروف عند الناس : أن الترف مفسدة ، وأنه يميل بالقوي إلى الدعة ، لما يتعود عليه أثناء الترف من حياة راغدة لينة[5] .

خامسا : لقد أدى هذا الجدب - الذي أشرنا إليه - بالعرب وأهل مكة ، إلى أن يبحثوا عن وسيلة للعيش ، فكانت التجارة ، وقد نظموها في رحلتين :

إحداهما : إلى الشمال صيفا .

---

(١) سورة آل عمران ، آية رقم ١٣٠ .

(٢) الزمخشري ، الكشاف ، جـ : ١ ، ص : ٤٦٣ .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٧٩ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : ٤٩٢ .

(٥) فؤاد علي رضا ، أم القرى ، مكة المكرمة ، ص : ١١٥ .

والثانية : إلى الجنوب في أثناء الشتاء .

وأدى اختلاط التجار العرب بالروم والفرس والهنود والأحباش ، خلال جولات التجارة : أن أخذوا كثيرا من نظمهم ، ونقلوها إلى الجزيرة العربية وقد اشتملت الحياة العربية على سائر النظم والعقائد[1] .

ويلاحظ أن مكة ضمت العدد العديد ، من الملل والأعراف ، بسبب وقوفها في مكان تلتقي فيه جميع الطرق الآتية من كل الجهات ، فالطريق الغربي الذي يبدأ من ظفار جنوبا ، وينتهي عند تيماء ، يمر بمكة ، والطريق الشرقي الذي يبدأ من ظفار جنوباً ، وينتهي عند صور بلبنان يتصل بمكة بواسطة طريق عرضي يبدأ من مكة ، وينتهي عند القطيف وتتصل مكة – أيضا – بالبحر الأحمر عن طريق مينائها جدة ، وبذلك كانت مكة معبرا رئيسيا للقوافل الآتية من الشمال أو الجنوب فأثرت بأوضاعهم[2] .

وهذا الأمر ساعد على وضع الأسس الإصلاحية التي لاتختلف من مكان إلى مكان ، وتناسب كل الأجناس ، وتناقش كل المعتقدات على اختلافها .

سادسا : أن البيئة المكية بيئة طاردة نافية لمن يقيم فيها ويدل على هذا المعنى : تسمية مكة (بكة) في القرآن . وهو اسم مشتق من البك ، وهو الطرد والنفي ، سميت بذلك ، لأنها تبك المقيمين فيها وتدفعهم إلى غيرها من البلدان والأقطار[3] .

وإنما كانت مكة طاردة ، لقسوة الحياة فيها ، في الأحقاب البعيدة من التاريخ ، فقد وصفها إبراهيم الخليل – عليه السلام – وهو يودع ولده إسماعيل ، وأمه هاجر عند البيت الحرام ، قائلا :﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٠ .

(٢) د . يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ... ، ص : ١٢٥ .

(٣) عبد القادر أحمد عطا ، لماذا بعث الرسول في مكة ، ص : ١٥ .

عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾[1] فهي بيئة مقدرة متحجرة الأرض كثيرة الجبال ، ملتهبة الجو ، منخفضة المكان ، تحيط بها الجبال من كل جهاتها ، فإذا تسعرت الشمس ، كانت نيرانها مسلطة على مكة من كل أقطارها ، فالصخور على أرضها ، ومن حولها تلفح الأجساد إلى جانب اللهب المسلط على أهلها من أشعة الشمس المباشرة لرؤوسهم من فوق ، فلا ماء ، ولازرع ، ولاثمر . ومن ثم فلم تكن مكة بلدا يهاجر إليها الغريب ، إلا لأسباب مادية بحتة . أما قريش : فقد كان منصبها اللغوي والديني سببا رئيسيا في بقائها في مكة[2] .

فالمادية وحدها ، أو الضرورة وحدها ، هي التي كانت تتحكم في بقاء سكان مكة في مكة ، في تلك الأيام البعيدة ، أما أن تكون مكة أرضا صالحة لنماء الأفكار الإنسانية ، وتفاعلها مع غيرها من الأفكار الفلسفية التي كانت في ذلك العصر ، فهذا شيء أبعد مايكون في التصور وفي الواقع ، فالفكر ولا سيما الفلسفة ، لايمكن أن ينمو إلا في بيئة مستقرة ورفيقة بالإنسان[3] .

سابعا : لقد فرضت الصحراء على العرب طباعا وأخلاقا خاصة تناسبهم ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولا ، ثم صارت لهم على مر السنين جبلة وفطرة ، وصارت لهم عنوانا بين الناس ، وصقلتهم الحروب التي اكتوت الجزيرة بنارها ردحا من الزمن ، ونستطيع أن نزعم بأن تلك الجاهلية الضنكة ، والحروب التي اشتعلت قد صهرتا ذلك المجتمع وتقاليده .. فنشأت وتكونت مجموعة من القيم والمثل ، تعارف عليها المجتمع ، وآمن بها ، واحترمها والتزم بها[4] .

ثامنا : فإن التأخر الاقتصادي في الجزيرة تسبب في وجود طبقة عرفت بطبقة

---

(١) سورة إبراهيم ، آية رقم ٣٧ .

(٢) عبد القادر أحمد عطا ، لماذا بعث الرسول في مكة ؟ ص : ١٥ - ١٦ .

(٣) السابق ، ص : ١٦ ، بتصرف .

(٤) د . عفيف عبد الرحمن ، المثل والقيم ، ص : ١٢٧ ، من مجلة : مجمع اللغة العربية الأردني ، المجلد : ١٣ - ١٤ ، ذو الحجة ، ط : الأردن .

الصعاليك ، وقد اتحدت هذه الطبقة لنفسها بمراكز في الخلاء الواسع[1] .

ووجود هذه الطبقة دليل على ضيق موارد الجزيرة حتى مع وجود موارد التجارة .. ومن هنا : نستطيع فهم السبب في الهجرات[2] التي خرجت من الجزيرة العربية في أفواج متتابعة ، إلا أن ثقل القوة في العالم ، وتمركزها آنذاك في دولتي الفرس والروم اللتين استولتا على جميع الجهات المحيطة بالجزيرة العربية ، حبست القبائل في مكانها ، الأمر الذي أدى إلى توسيع هوة الخلاف بين القبائل بسبب القنص والصعلكة ، فقامت المنازعات المتكررة بينهم ، وقد استفادت الدعوة الإسلامية من هذا الوضع ، فلم تصطدم بتكتل واحد ، يطغى بقوته بل كان هناك دائما صوت مع النبي – صلى الله عليه وسلم – من القبائل أثناء ضعف المسلمين وقلتهم ، واستفادت الدعوة كذلك بأن صفت مابين العرب من خلاف ، وأزالت الاضطرابات الموجودة فيهم ، فتوحدوا[3] .

تاسعا : يرى كثير من أهل الدراسة : أن الجزيرة العربية أحيطت بحواجز طبيعية منيعة ، إذ وجدت المياه في ثلاث من جهاتها والجهة الرابعة كانت مرتفعات

---

(١) د . يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص : ١٣٤ .

(٢) أما هجرات الفتوحات الإسلامية : فقد كانت أسبابها ودوافعها تنطلق من الإيمان بالإسلام ، وتبليغ الرسالة ، وحبا في أن يكون كل مهاجر ينطبق عليه قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « لأن يهدي الله بك رجلا واحدا ، خير لك من حمر النعم » . فهجرة الفتوحات الإسلامية غير الهجرات التي حدثت في الجزيرة العربية قبل الإسلام إذ أن الدوافع مختلفة . وأثبتت الدراسات : أن هجرة المسلمين لتبليغ الإسلام لم تكن أسبابها اقتصادية ، بدليل العربي الذي كان له ثراء عريض في مكة ، وهو : (ضمرة بن جندب) حينما علم بهجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة المنورة ، قال : احملوني إليه ، وكان مريضا لا يستطيع المشي ، وقد حملوه ، حتى مات في الطريق ، واختلف أهل المدينة في شأنه ، فنزل قوله تعالى : ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما** ﴾ . سورة النساء ، آية : ١٠٠ ، وبهذا لا تنسحب هذه الهجرات على هجرة المسلمين ، لنشر الإسلام وتبليغه في كافة أصقاع المعمورة فيما بعد . ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم جـ : ٢ ، ص : ٣٤٦ . ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ : ٣ ، ص : ٦١ .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٢ .

وسهولا في الشمال . وهي حواجز تحتاج في عبورها إلى تدريس وتمرس شاق ، ما يتعلمها العربي إلا لحاجته ، أما غيره : فليس له إلى ذلك حاجة ... وبذلك وقفت هذه الحواجز كسد قوي أمام المجموعات الغازية ، من الفرس أو الروم[1] .

وقد ترتب على ذلك : أن الغزاة لم يستطيعوا الوصول إلى سرة الجزيرة العربية ، فاحتفظ العربي بسجيته وفطرته و لم تداخله تناقضات الفكر ، ولامتاهات الفلسفة والجدل .

ولو قارنا سائر الأماكن ، بالمكان الذي اختير لظهور الدعوة الإسلامية لوجدنا تلك الأماكن غير صالحة ، لأن تظهر الدعوة فيها ..فالفرس والروم ملكا قوة سياسية وعسكرية ، استعملت في العنف والقسوة ، كما أن سائر الأمم في هذا العصر كانت مهتمة بأفكار دينية خاصة بها .. و لم يحدث أن جمعت واحدة منها ماجمعته الجزيرة العربية من مختلف الملل والعقائد . كما أن كافة الهيئات حرمت أبناءها من النشاط الذي اكتسبه العربي ، بسبب خصائص بيئته ، وأيضا : فإن النزعة الدينية كانت راقية عند العرب ، بسبب مكة (أم القرى)[2] ، والكعبة ، كما أن الجزيرة العربية تقع في وسط العالم المعروف آنذاك مع صيانتها بالحواجز[3] .

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص : ٧١ ، ط : السابعة ، دار القلم ، بيروت .

(٢) فائدة : وفي سبب تسمية مكة – (أم القرى) أربعة أقوال :

الأول : أن الأرض ، دحيت من تحتها قال ابن عباس ، وابن قتيبة : لأنها أقدم الأرض .

والثاني : لأنها قبلة تؤمها جميع الأمة .

والثالث : لأنها أعظم القرى شأنا .

والرابع : لأن فيها بيت الله – سبحانه وتعالى – ولما جرت العادة أن بلد الملك وبيته مقدمان على جميع الأماكن ، سمى أما ، لأن الأم متقدمة .

الحسن البصري ، فضائل مكة والسكن فيها ، ص : ١٩ ، الهامش : تحقيق : د . سامي بكى العاني ، ط : الثانية ، مكتبة الفلاح ، بالكويت : سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٥ .

فالمكان الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية ، أحاطه الله بمجموعة من الظروف البيئية ، جعلته مكانا ملائماً للدعوة الإسلامية .

***